الرضا
والأخذ بالأسباب

الرضــا

والأخذ بالأسباب

إنَّ الأَخْذَ بِالأَسْبَابِ طَاعَةٌ. وَقَدْ أَمَرَ اللهُ به.

وَالتَّفْرِيطُ فِي الأَخْذِ بالأَسْبَابِ مَعْصِيَةٌ.

وَلاَ يَكُونُ الإنسانُ رَاضِياً عن ربِّه إنْ هُوَ قَصَّرَ فِي الأَخْذِ بالأسبابِ، أوْ تَعَمَّدَ إبْطَالَها، أَوْ رَكَنَ إلى الأسبابِ، وَأَسْنَدَ الفَضْلَ لَهَا.

مَرِيضٌ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ بالأَسْبَابِ فِي طَلَبِ الدَّوَاءِ؛ رَغْبَةً فِي الشِّفَاء. واللهُ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً.

فَلْيَأْخُذ الإنسانُ بالأسبابِ، وَلْيَذْهَب إلى الطَّبيبِ، وَلا يُقَصِّرُ فِي عِلاجِ مَرَضِهِ، وَلْيَكُن على يَقِينٍ ـ وَهُوَ يَأْخُذُ بِالأسباب ـ أنَّ الشِّفَاءَ بِيَدِ اللهِ وَحْدَه.

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾.[1]

الأَخْذُ بالأسبابِ طَاعَةٌ.

وَإِنْكَارُ الأَسْبَابِ مَعْصِيَةٌ.

والرُّكونُ إلى الأسبابِ وَحْدَهَا ـ دُونَ يَقِينٍ بأنَّ الأَمْرَ بِيَدِ اللهِ وَحْدَه ـ مَفْسَدَةٌ وَمَضْيَعَةٌ.

وَهُنَا تَكُونُ الحَاجَةُ إلى **الرِّضَا** عن اللهِ بَيِّنَةً فِي المُقَدِّمَاتِ والنَّتَائِجِ.

فِي المُقَدِّمَاتِ أَخْذٌ بالأسبابِ، وطَاعَةٌ لله الذي جَعَلَ لِكُلِّ شيءٍ سَبَباً.

(1) الشعراء: ٨٠.

إِذْ لاَ يَكون الإنسانُ رَاضِياً عن ربِّه مُحِباً لَهُ إلاَّ بِطَاعَتِهِ، وَتَجَنُّبِ مَعْصِيَتِهِ.

وَفِي النَّتائِجِ لا يسند الفَضْلَ إلاَّ لِمَن لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ، تَبَارَكَ اللهُ ربُّ العَالمين:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ ﴾.[1]

وَلا مُنَافَاةَ بَيْنَ شُكْرِ الله ـ تعالى ـ وَإِسْنَادِ الفَضْلِ إليه، وَشُكْرِ النَّاسِ عَلَى ما قَدَّموا من عَوْنٍ؛ فإنَّ « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ ».[2]

علينا ـ دائماً ـ أَنْ نَأْخُذَ بالأسبابِ فِي كُلِّ المجالات، وَأَنْ نُدْرِكَ أنَّ هذا هو السَّبيلُ لِطَلَبِ ما نَرجُوهُ من ربِّنا، من رِزْقٍ، وَفَوْزٍ، وَنَصْرٍ.

وَذَاك هُو مفهومُ "التَّوَكُّل عَلَى الله"أَخْذٌ بالأسبابِ، وَرِضَىً بالنتائج.

وَإِذَا جَاءَتْ النتائجُ على غَيْرِ ما نَرْغَبُ، فَلْنَتَّهِم أَنْفُسَنَا بتقصيرٍ فِي سَبَبٍ، أَوْ تَفْرِيطٍ فِي مُقدِّمَاتِ إيمانٍ ويقين.

وَلاَ نَتَّهِمُ الأَقْدَارَ بِحَالٍ من الأحوالِ، بَلْ نَرْضَى ـ كُلَّ **الرِّضَا** ـ عَن قَدَرِ الله فِيما نُحِبُّ أَوْ نَكْرَه، فِي مَوْتٍ وَحَيَاةٍ، وَعُسْرٍ وَيُسْرٍ، وَشِدَّةٍ وَرَخَاء؛ فإنَّ **الرِّضَا** عن الله ـ بَعْدَ القيامِ بِمَا أَوْجَبَ ـ يَجْعَلُ النتائجَ بَارَّةً

(1) الشعراء: ٧٨ـ ٨٢.

(2) الترمذي: كتاب البر والصلة، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

بالإنسانِ، سَواء كَانت عُسْراً أَوْ يُسْراً، صِحَّةً أَوْ مَرَضاً، حَيَاةً أَوْ مَوْتاً، هَزِيمةً أَوْ نَصْراً.

لأنَّ الإنسانَ سيُقابِلُ النتائجَ بِصَبْرٍ أَوْ شُكْرٍ. وَفي ذلك كُلُّه خَيْرٌ، كَمَا قال الرسولُ ﷺ فيما رواه مسلم، عَن أبي يَحْيى صُهَيْبِ بن سِنَانٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ »[1]

وَمَع الصَّبْرِ والشُّكْرِ يكونُ **الرِّضَا** عَن اللهِ، وتكونُ النتائجُ بَارَّةً بالإنسان، إِنْ هُوَ أَحْسَنَ النَّظَرَ إلى العَوَاقِبِ، وَلَمْ يأخُذ بالعَاجِلِ من الرَّغَائِبِ.

بَارَّة بِهِ في دُنياه وفي آخِرَتِهِ، وَهُوَ يَعْمَلُ الصَّالحاتِ، وَيَكُفُّ عن السَّيِّئاتِ.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.[2]

والصَّبْرُ والشُّكْرُ جِمَاعُ ما يجبُ أن يكونَ عليه الإنسانُ؛ لكي يكون رَاضِياً عن ربِّه، فَبِهِمَا يَبْقَى الإنسانُ في قُوَّةٍ وَمَنَعَةٍ، لا يَفْقِدُ رِضَاهُ عن اللهِ في أيِّ حَالٍ كان.

---

(1) سبق تخريجه.

(2) النحل: ٩٧.

ولا تكونُ النِّعْمَةُ ـ وَهُوَ يَشْكُرُ رَبَّهُ ـ مَدْعَاةً إلى إرادةِ عُلُوٍّ في الأرض أَوْ فَسَادٍ، ولا يكون الضُّرُّ مَدْعَاةً إلى ذِلَّةٍ أَوْ انْكِسَار.

وهُو يَصْبِرُ صَبْرَ الحُرِّ الكريم، الذي يَرَى مَعَ العُسْرِ يُسْراً، وَمَعَ الضِّيقِ فَرَجاً.

فَيَسْعَى في الأرضِ سَعْيَ الوَاثِقِ المطْمَئِن، يَغْدُو وَيَرُوحُ مُتوكِّلاً عَلَى اللهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أنَّ اللهَ يرزقه كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ « تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا ».[1]

فَلا يُهمل الأَخْذَ بالأسبابِ، ولا يَقْعُدُ عن طَلَبِ الرِّزْقِ.

وَأَنْتَ تَأْخُذُ بالأسبابِ اذْكُرِ اللهَ كَثِيراً، وَلاَ تَنْسَاه.

وَمَا يُذَكِّرُكَ باللهِ لا يَنْفَكُّ عَنْكَ وَلاَ يَغِيب.

وَيَكْفِي أَنْ تُبْصِرَ نَفْسَكَ؛ لِتُذَكِّرَك.

وآياتُه هي العَامِلَةُ في نَشأتِكَ وَرِزْقِكِ، وفي حَيَاتِكَ وَمَوْتِك، وفي دُنْيَاكَ وآخِرَتك.

فأنتَ تَرَى ـ بِفِطْرَتِكَ ـ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ المالكُ لِجَمِيعِ أَمْرِك.

وفي كُلِّ خُطْوَةٍ من خُطُواتِكَ أَنْتَ مَدِينٌ لِفَضْلِهِ وَعَوْنِهِ وَرَحْمَتِهِ.

وَقَدْ جَاءَ زَمَنٌ ـ مِن قَبْل ـ لَمْ تَكُن فيه شَيْئاً مَذْكُوراً.

وَسَيَأْتِي يَومٌ تَرَى نَفْسَك فيه قَدْ عُدْتَ من حَيْثُ أَتَيْتَ، وأُخْرِجتَ من حَيْثُ قُبِرت.

---

(1) الترمذي: كتاب الزهد، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.[1]

وَضَمِيرُ العَظَمَةِ لا يَنْفَكُّ عَن أيِّ شَأْنٍ يَتَّصِلُ بك.

والعَظَمَةُ للّٰه وَحْدَهُ.

انْظُرْ إلى ضَمِيرِ العَظَمَةِ في قوله تعالى: ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾.[2]

وَخُذ التَّصْرِيحَ بِلَفْظِ الجَلالَةِ من قوله سبحانه:

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾.[3]

هَلْ تَرَى لأَحَدٍ ـ غَيْرَ اللّٰه ـ تَصْرِيفاً في أَخَصِّ مَا يَتَّصِلُ بِكَ، من نَشْأَةٍ وَحَيَاةٍ، وَمَوْتٍ وَبَعْثٍ ؟

إنَّ شيئاً وَاحِداً هُو الَّذي يَرْجِعُ إليه جَمِيعُ أَمْرِك.

وَهُوَ (اللّٰه) الذي يَمْلِكُ كُلَّ شيء.

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.[4]

خُذْ مَثَلاً (الحَوَاسَّ) التي يستعملها في الأَخْذِ بالأسبابِ

---

(1) البقرة: ٢٨، الروم: ١١، الزمر: ٤٤.

(2) طه: ٥٥.

(3) نوح: ١٧- ١٨.

(4) الأعراف: ٥٤.

وانظُرْ:

مَنْ يَمْلِكها ؟

وَمَن يَمْلِكُ أَن يَرُدَّها إذَا أَخَذَهَا ؟

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.[1]

هَذهِ حَوَاسُّك التي تَسْعَى بهَا، وهَذا الرِّزْقُ الذي تطلبه.

بَلْ هَذِهِ الحياةُ من بِدايَتِهَا إلى نِهَايَتِهَا.

وَتَدْبِيرُ الأَمْرِ كُلِّه لِمَن يكون ؟ وَمَن يَمْلِكُ الرِّزْقَ ؟

﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

إِذاً فَأَنْتَ تَأْخُذُ بالأسباب التي أَعْطَاهَا (اللهُ) لَك، ولا أَحَد يستطيع أن يرُدَّها إليك إنْ أَخَذَهَا مِنْكَ.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.[2]

فالأسبابُ التي تَأْخُذُ بهَا مُقْتَرِنة ـ دَائِماً ـ بالتبْصِرَةِ والذِّكْرَى، واللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يُذكِّرك بالنعمةِ سَلْباً وَإيجاباً؛ لِتَعْرِفَ قَدْرَ مَا أَنْعَمَ عليك،

---

(1) يونس: ٣١.

(2) الأنعام: ٤٦.

فَلا يَغِيبُ عَنْكَ شُكْرُهَا.

يُذَكِّرُكَ بما جَعَلَ لَكَ من السَّمْعِ وَالبَصَر.

وَيُبَصِّرُكَ باستعمالِ هذه النِّعْمَةِ فيما خُلِقَتْ لَهُ..

ولكي يكون تَقْديرُك لهذه النعمةِ تَقْديراً راشِداً، ذكِّرك بها عطاءً.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.[1]

وَذَكِّرَكَ بِهَا سَلْباً وَافْتِرَاضاً.

لَوْ أَخَذَ اللهُ مَا أَعْطَاكُم، مَنْ إلهٌ غَيرُ الله يستطيعُ أنْ يَأتيكم به ؟

وَتَرَى ذلكَ في كُلِّ مَا أَنْعَمَ اللهُ به عَلَيْكَ وَأَعْطَاك.

يُذَكِّرك بِهِ سَلْباً وإيجاباً.

فَـ (الماءُ) الذي لا غِنَى لأحدٍ عَنْهُ، يُذَكِّرُكَ بأنه عَطَاءٌ منه ـ سُبْحَانه ـ لا مِن أَحَدٍ غيره.

وأنَّ اللهَ هُوَ الذي جَعَلَهُ نَافِعاً، عَذْباً فُرَاتاً، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ أُجَاجًا.

بَلْ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ غَوْراً، لا تَسْتَطيع لَهُ طَلَباً.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.[2]

وَهَكذَا كُلُّ نِعْمَةٍ أَعْطَاهَا اللهُ لَك، يُعِينك عَلى شُكْرِها بِتَصْرِيفِ

---

(1) النحل: ٧٨.

(2) الواقعة: ٦٨ـ ٧٠.

الآياتِ في تبصرتها، والتَّذْكِير بها.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.[1]

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.[2]

أَرَأَيْتَ كيفَ تُصَرَّفُ الآيات؛ لِتَبْقَى التَّبْصِرَةُ والذِّكْرَى قائمةً في حياتِكَ كُلِّهَا، تَسْتَحْضِرُ بِهَا حِكْمَةَ خَلْقِك، وَغَايَةَ وُجُودِك.

ولكنَّ التَّبْصِرَةَ والذِّكْرى لا يَنَالُهَا إلاَّ مَن أَرَادَهَا، وانْشَرَحَ صَدْرُهُ لَهَا.

وَبِهَا يَقْتَرِنُ رِضَاكَ عَن رَبِّك، وَإِنَابَتك إليه، وإخلاص عِبادَتِكَ له.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾.[3]

التَّبْصِرَةُ والذِّكْرَى قائمةٌ في الآفَاقِ، وَفِي الأَنْفُس.

وَفِي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

---

(1) الملك: ٣٠.

(2) القصص: ٧١ ـ ٧٣.

(3) الفرقان: ٦٢.

فَأَنْتَ لا تَأْخُذُ بالأسبابِ بَعِيداً عمَّا يُبَصِّرُكَ وَيُذَكِّرك، وَإِنَّمَا تَأْخُذُ بالأسبابِ بِنَفْسِكَ، وفي الأَنْفُسِ تَبْصِرَة، أَي تَبْصِرة.

وفي ليلٍ أو نهار، وفي كَوْنٍ وَاسِعٍ، فيه أَرْضٌ تُقِلُّكَ، وَسَمَاءٌ تُظِلُّك.

وفي الأَرْضِ آيَاتٌ، وفي السَّمَاءِ آيَاتٌ وآيَات.

فالتبصِرَةُ والذِّكرى لاَ تَنْفَكُّ عَنْكَ في أيِّ شَأْنٍ ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾.[1]

والآياتُ في الأَنْفُسِ وفي الآفَاقَ لاَ تَقِفُ بِكَ عندَ مَعْرِفَةِ الحَقِّ في شُئُونِ دُنْيَاكَ، وَإِنَّمَا تُقَدِّمُ لكَ التَّبْصِرَةَ والذِّكْرَى في اليَقِينِ بِمَا تُؤْمِنُ به في دُنْيَاكَ وأُخْرَاكَ.

﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ ﴾.[2]

فَلَمْ تَقِفْ بِكَ التَّبْصِرَةُ بـ (الماء) عِنْدَ مَا تُحَصِّلُه من مَتَاع، فَالمَتَاعُ لكَ وَلِلأَنْعَامِ.

﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣ ﴾.[3]

وَإِنَّما امتدَّتْ بِكَ التَّبصرةُ بالماءِ ـ واللهُ يُحْيِي به الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ـ

---

(1) ق: ٦ـ ٨.

(2) ق: ١٠، ١١.

(3) النازعات: ٣٣.

إلى إحْيَائِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.[1]

﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾[2]

أي: خُروج الْمَوْتَى مِن قُبورِهم.

تلكَ وَظِيفَةُ الماءِ في التَّبصرةِ والذِّكرى، بجانبِ مَا لَهُ في حياةِ النَّاسِ مِن نَفْعٍ وَمَتَاع.

تَبْصِرَةٌ امتَدَّتْ إلى عقيدةِ البَعْثِ؛ لِتَقْديمِ الدَّليلِ عَلَى وُقُوعِهِ بلا عُسْرٍ أَوْ تَكَلُّف، وَكَمْ في القرآنِ من آياتٍ قَدْ ذُكِرَ فيها (الْمَاءُ) بتبصرَتِهِ وَذِكْرَاه، وَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِكُلِّ حَيَاة.

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾.[3]

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.[4]

---

(1) فصلت: ٣٩.

(2) ق: ١١.

(3) فاطر: ٩.

(4) الأعراف: ٥٧.

فَأَنْتَ لا تَأْخُذُ بالأسبابِ مُنْفَصِلاً عن التّبصرةِ والذِّكْرَى، فَفِي طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ، وَصَحْوِك وَنَوْمِكَ، وَلَيْلِك وَنَهَارِكَ، وَغُدُوِّكَ وَرَوَاحِكَ، وَصِحَّتِكَ وَمَرَضِكَ، وَأَحْوَالِ المخْلُوقَاتِ مِن حَوْلِك.

في كُلِّ شيء لَكَ فِيهِ تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى.

فإنْ تَحَقَّقَتْ التَّبْصِرَةُ والذِّكْرَى في نَفْسِك، خَلُصَتْ عبوديتُك لِرَبِّكَ، فَلَم تَكُن في حَيَاتِكَ ـ كُلِّها ـ عَبْداً لأَحَدٍ سِوَاه.

وَكَمْ في النَّاسِ مِن عَبْدٍ لِمَا يَهْوَاهُ، مِن لَذَّةٍ وَشَهْوَةٍ، وَزِينَةٍ وَمَتَاع.

وَلَنْ يَنْتَصِرَ ـ في نَفْسِكَ ـ حُبُّكَ لِرَبِّكَ وَرِضَاكَ عَنْهُ ـ فِي كُلِّ حَالٍ ـ إلاّ إذَا انْتَصَرْتَ عَلَى نَفْسِكَ، بِتَغْلِيبِ أَمْرِ اللّهِ عَلَى هَوَاكَ.

وَمَن انْتَصَرَ عَلَى هَوَاهُ عرف كَيْفَ يَرضى عن مولاه.

وَمَنْ غَلَبَهُ هَوَاهُ فَهُوَ مَغْلُوبٌ في دُنْيَاهُ وَأُخْرَاه.

وَمِن النَّاسِ مَنْ يَأْخُذُونَ بالأَسْبَابِ فِي شَتَّى الْمَجَالاتِ، وتُفْتَحُ عليهم الدُّنيَا، وَيَأْتِيهم من رِزْقِ اللّه مَا يَأْتِيهم، وَلَكِنْ تَغِيبُ عَنْهُمُ التَّبْصِرَةُ والذِّكْرِى، فَتَتَحَوَّلُ نِعْمَةُ اللّه ـ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِم ـ إلى خُسْرَانٍ عَلَيْهِم وَنِقْمَة.

ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَأْخُذُوا مِن نِّعْمَةِ اللّهِ عَلَيْهِم إلاّ مَا تَأْخُذُهُ الدَّوابُّ والأَنْعَامُ مِن مَتَاع.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ ﴾.[1]

(1) محمد: ١٢.

ذَلِكَ أَنَّ هؤلاء قَدْ غَفَلُوا عَمَّا خُلِقُوا لَهُ، وَمَا جَاءوا مِنْ أَجْلِهِ، فَاسْتَعْمَلُوا حَوَاسَّهُم لِلعَاجِلَةِ، وَحَجَبُوهَا عَن الآخِرَةِ، مَعَ أَنَّ الآخِرَةَ هي الحياة !

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.(1)

أَوْقَفُوا أَنْفُسَهُم عَلَى مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَغَفَلُوا عَن عَاقِبَتِهَا وَغَايَتِهَا، واللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لَمْ يُحَرِّمْ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنيا وَالطَّيِّبَاتِ من الرِّزْق، وَلَكِنَّهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ جَعَلَهَا زِينَةً، وَلَمْ يَجْعَلْهَا قِيمَة.

وَالزِّينَةُ تَذْهَبُ، وَالقِيمَةُ تَبْقَى.

وقِيمَةُ النِّعْمَةِ في التبصرةِ بهَا، وَشُكْرِ خَالِقِهَا وَمُعْطِيهَا.

وَالأَخْذُ بالأسْبَابِ يَرْتَبِطُ ـ دَائِماً ـ بمَا أَعْطَى اللهُ وَهَدَى.

واللهُ قَدْ أَعْطَى كُلَّ شيء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى.

وَمَا أَعْطَاهُ اللهُ للنَّاسِ مِن سَمْعٍ وَأَبْصَارَ وَأَفْئِدَةٍ لا يَتَحَقَّقُ الأَخْذُ بالأَسْبَابِ إلاَّ بهَا، وَقَدْ جَعَلَهَا اللهُ لِغَايَةٍ إِنْ ضُيِّعَتْ ضَاعَتْ مَعَهَا حِكْمَةُ خَلْقِهَا وَوُجُودِها.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.(2)

---

(1) العنكبوت: ٦٤.

(2) النحل: ٧٨.

وَتِلْكَ هيَ الغَايَةُ التي يَفْقِدُهَا مَنْ قَصرَ حَوَاسَّهُ عَلَى مَتَاعِ الدُّنيَا، فَلا يَرَى من الأشْيَاءِ إلاَّ ظَاهِرَهَا، وَهُوَ غَافِلٌ عَن حَقَائِقِهَا وَغَايَتِهَا وَحِكْمَتِهَا. فَيَقَعُ الفَصْلُ بَيْنَ الْمُقَدِّمَةِ وَالنتيجَةِ، بَيْنَ الْمَتَاعِ وَالتَّبْصِرَةِ، بَلْ بَيْنَ الدُّنيَا وَالآخِرَة.

فَيَأْخُذُ مَنْ يَأْخُذُ بالأسبابِ لِكَي يَحصل مَا يتطلّعُ إليه من رَغَائِبَ مَشْرُوعَةٍ أَوْ غَيْرِ مَشْرُوعَة، دُونَ نَظَرٍ إلى العَوَاقِب حَسَنة كَانَتْ أَوْ سَيئة.

فَيُسيءُ مِن حَيْثُ يَجِبُ أَنْ يُحْسِن.

وَيُفْسِدُ مِن حَيْثُ يَجِبُ أَن يُصْلِح.

وَيَكْفُرُ مِن حَيْثُ يَجِبُ أَنْ يَشْكُر.

فَتُعْزَلُ هذه الحواسُ ـ مِن سَمْعٍ وَبَصَرٍ ـ عَن أَخَصِّ مَا خُلِقَتْ لَهُ، من مَعْرِفَةٍ وَهِدَايَةٍ، وَاسْتِقَامَةٍ وَتَبْصِرَة.

وَعِندَئِذٍ يَكُونُ هؤلاء ـ بِمَا صَارُوا إليه ـ كَالأَنْعَامِ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ، مَعَ أَنَّ لَهُمْ سَمْعَاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً !!

لأَنَّهُم ضَيَّعُوا مَا تَمَيَّزُوا به وَمَا خُلِقُوا مِن أَجْلِهِ، فَعُوقِبُوا بالْحِرْمَانِ مِن الإفَادَةِ منها.

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾[1].

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا

(1) الفرقان: ٤٤.

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾.[1]

ولا تَسَلْ عمَّا يكونُ مَعَ الغَفْلَةِ من سُوءِ التَّقديرِ، واضطرابِ الموازين، حيثُ يَضِلُّ مَنْ يَضِلُّ وَهُوَ يَحْسَبُ أنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعاً.

فيقولونَ: "سمعنا"وهم لا يسمعون !

ويقولون: "عَقِلْنَا"وهم لا يفقهون !

ويقولون: "رأينا"وهم لا يُبصرون !

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

وعندئذ نرى غايةَ الأخذ بالأسباب ـ عند هؤلاء ـ أن تتحقق لهم لَذَّةٌ عاجلة، أو منفعةٌ زائلة، أو دُنيا صاخبة.

وليس لموازين الحلال والحرام عندهم قَدْر.

ولا للمعروفِ عندهم شأن، أي شأن.

فَمَرْحَباً ـ عندهم ـ بالظُّلْمِ إنْ حقّق لذَّةً.

ومرحباً بالغدر إنْ أَحْرَزَ غنيمةً.

بل، وا حسرتاه ـ عند هؤلاء ـ إنْ فاتهم المطلوبُ، أو أبطأ المرغوب.

لا يذكرون الله، ولا يعرفون معنى **الرِّضَا** إلاَّ حيثُ تتحققُ أغراضُهم ومنافعُهم في دُنياهُم.

---

(1) الأعراف: ١٧٩.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.[1]

ولا أتصوَّرُ أنَّ سِلْمَاً، أَوْ أَمْنَاً، أَوْ رِضاً يتحقق للإنسان مع هذه الأغراض وتلك الغايات.

بل سيقعُ التنافُسُ المسعورُ، الذي يجعل الناسَ أسرى لشهواتهم وأهوائهم.

ومَن أَسَرَهُ هَواهُ ضَلَّ مَسْعَاهُ، وَخَسِرَ دُنياه وأُخراه؛ لأنَّ الذي يرتفع بهم عن ذلك قد ضيَّعوه، ولم يستمسكوا به !

ضيَّعوا ما تستقيمُ به الحياةُ، وينعم به الأحياء، من ذِكر الله **والرِّضا** عنه.

ولا أعرف عقوبةً أشدّ من عقوبةِ مَن اتخذ آلهة هواه.

إنها عقوبةٌ يفقِدُ معها أسبابَ الهداية والتبصرة. بل يفقد أسبابَ الحياة، ولا يجد مَن يهديه من بَعْدِ الله.

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.[2]

ودُنيا الناس مليئة بمثل هؤلاء الذين لا يستجيبون للحقِّ، ولا يرونه

---

(1) التوبة: ٥٨.

(2) الجاثية: ٢٣.

إلاّ فيمَا يُحقّقُ أهواءَهم وشهواتهم.

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.[1]

وقضايا الحق ليست بمعزلٍ عن جزئيات الحياة وقضايا الأحياء.

ودُعَاةُ الحقِّ لا يخلو منهم زمانٌ أو مكان.

وفي كُلِّ شأنٍ لا يغيبُ عن الناس وَجْهُ الحقِّ فيها.

وللحقِّ نُورُه وبُرهانُه، وإن جحده الجاحدون.

فَمَن اتَّبَعَ هواه لم يستجبْ للحقِّ وإنْ سَطَعَ نورُه، وغَلبتْ حُجَّتُه وبُرهانُه.

وهؤلاء لا يتدبرون العواقبَ وهم يجحدون الحقَّ فيفسدون ويظلمون؛ فإنَّ مَن تدبَّر العواقبَ أيقَنَ أنَّ الحقَّ لا يُهزَمُ أبداً، وأن الجاحدين لَمَأْخُذون به؛ فإنَّ للحقِّ ناراً ونوراً، فَمَن أَبَى النُّورَ فالنَّارُ موعده.

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.[2]

فالأسباب التي أُعطيت للإنسان لكي يتدبر ما يصلح أمرَه في دُنياه وأُخراه ـ من سمعٍ وأبصارٍ وأفئدة ـ قد عُوقِبَ هؤلاء بفُقدانِها، وإنْ ظنُّوا أنهم يعقلون أو يبصرون أو يسمعون.

فخَتَمَ اللّه على سَمعهم وقلوبهم، وجعل عليها غِشاوةً، وأضلَّهم على

---

(1) النور: ٤٩.

(2) القصص: ٥٠.

علم بحالهم.

وقد أعذر إليهم بالهُدى والبيان، فأَبَوْا إلاّ اتِّباع الهَوى وعبادة الشيطان.

إنَّ الإصرار على اتِّبَاعِ الهَوى، واتخاذه إلهاً يُعبَدُ، تقعُ عقوبتُه في الدنيا قبل الآخرة، بفُقْدان صاحبهِ التوفيق والهداية والاستقامة.

وهي عقوبةُ مَن اتَّبعوا أهواءهم، فَظَلُّوا في طُغيانهم يعمهُون.

إنَّ الأخذ بالأسباب ـ مع اتِّباع الأهواء والشهوات دون الإيمان بالحقِّ والقيام بالقسط ـ لا يُحققُ نِعمةَ **الرِّضَا** التي تبقى وتدُوم.

إنَّ نِعمةَ **الرِّضَا** ـ التي تبقى وتدُوم ـ هي نعمةُ الرِّضا عن الله. وهي نعمةٌ جديرةٌ أن تخضع لها الأسبابُ، وأن تُبذَلَ في سبيلها الأنفسُ والأموال.

نِعمةُ الرِّضا عن الله تقترنُ ـ دائماً ـ بحُبِّه وابتغاء مرضاته.

تقترنُ باتِّباع الأسباب التي شرعها لتحقيق المصالح واجتناب المفاسد.

والذين ترتبط دوافِعُهم بمنافعهم ـ دون نَظَرٍ لِمَا يحلُّ لهم وما لا يَحِل ـ قد يُحقِّقون لأنفسهم لذَّةً عاجلةً، وقد يرضون بها لحظة من ليل أو نهار، ولكنها لا تبقى، ولا يبقى الرضا بها، بل تذهب، ويذهب الرِّضا بها، وتبقى التَّبِعَةُ.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ

رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾.[1]

وكثيراً ما نرى النتائجَ أو دلائلَها ـ عاجلةً في دُنيا الناس ـ مُقترنةً بخير ما يريدون، أو شرٍّ ما يعملون.

فترى مَن أَعَانَ ظالماً؛ طَلَباً لمنفعة، نرى من النتائج أنَّ هذا الظَّالمَ قد يُسلَّط على مَن أَعَانَهُ على ظُلمه « ومَن أَعَانَ ظَالِماً سُلِّطَ عَليه ».[2]

أليست هذه نتيجةٌ عاجلة، وعِبرة كافية ؟

وكثيراً ما تكون، وترى مَن أرضوا الخَلْقَ في معصيةِ الخالق يفقدون كُلَّ شيء بِفَقْدِهم رِضَا الخالق.

وترى ذلك عاجلاً في مداولة الأيام بين الناس؛ فإن في مداولة الأيَّام عِبَراً وعظاتٍ لِمَنْ أراد أن يتَّعِظ أو يعتبر.

وفيها من النتائج للعاجلة ما يجعلنا نُقَدِّرُ لعملِ الخيرِ قَدْرَه، فنستَبِقُ الخيرات، ونُقَدِّرُ لعملِ الشَّر خَطَرَه، فنتجنب المظالمَ والسيئات.

ونتجنبُ ـ فيما نتجنَّبُ ـ إرضاءَ الخَلْقِ في معصية الخالق.

* * *

(1) آل عمران: ٣٠.

(2) قال في اللآلئ: ذكره صاحبُ الفردوس بسنده من حديث ابن مسعود، وقال في المقاصد: رواه ابن عساكر في تاريخه، عن ابن مسعود رفعه، وفيه ابن زكريا العدوى متهم بالوضع. (كشف الخفاء ٢/١٣٧٧).